شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٥

الوسطية

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

الوسطية[1] 1

- مفهوم الوسطية 2
- أصل ومرجعية الوسطية 3
- خصائص الوسطية 6
- منزلة الوسطية من الشريعة 8
- الوسطيون وسماتهم 9
- أدعياء الوسطية 10
- الخلط بين الوسطية والتيسير 12
- ضوابط الوسطية 14

١) رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=H6Pgr1sbk_0

مفهوم الوسطية

لقد جاء وصف الأمة بالوسطية في قول الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] وهذا هو أصل وصف الأمة بالوسطية بأن تكون هي الأمة المتوسطة بين الأمم وكذلك الشاهدة عليهم ; فالوسطية هي ما جعل الله تعالى الأمة عليها من جهة التشريع من كتابه وسنة نبيه ﷺ .

وقد جاء بيان معنى الوسطية عن النبي ﷺ في نصوصٍ كثيرة باعتبار أن الأمة هي آخر الأمم ، ومعنى إدراك الوسطية أن الإنسان لا يمكن أن يتوسط بين طوائف وفرق وجماعات حتى يكون محيط بجميعها ; فلما كانت أمة محمد آخر الأمم كانت هي المتوسطة من جهة إدراكها لكل ما سبق على اختلاف العقائد والشرائع .

وفي قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ يعني وسطًا من جهة التشريع والعقيدة وأحكامها من أمور الحلال والحرام والآداب وغير ذلك .

ولم يجعل الله تعالى الأمم السابقة من بني إسرائيل من اليهودية والنصرانية أمةً وسطا فلم تكن آخر الأمم وذلك أن آخر الأمم هي التي تتمكن من التوسط بين الأمم والشهود عليها .

ولهذا خص الله تعالى هذه الأمة بأن تكون هي آخر الأمم حتى تدرك جميع الأحوال من جهة الشدة والتيسير على الأمم السابقة فتتوسط فيما بينهم .

ومن معاني الوسطية الاعتدال في غير حيد ولهذا جاء " عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ شُهُودُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا قَالَ عَدْلًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " "[٢] فشهدت أمتنا لأنها

[٢]) صحيح البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ح(6917).

جاءت بعد أمة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وما بينهم من أنبياء الله تعالى ورسله فكانوا شهودًا عدولًا يقوم فيهم الحق يوم القيامة ، وكونهم عدولا وخيارًا يعني خيار المنزلة وخيار التشريع وخيار المكانة والنبوة والكتاب .

والوسطية التي أرادها الله تعالى هي التي جعل الأمة عليها من جهة التشريع وذلك بإتباع الصراط الذي أمر الله سلوكه .

وقد جاء في بعض السنن عن ابن مسعود رضي الله عنه " خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا ، ثُمَّ قَالَ : " هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ " ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَقَالَ : " هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ " وَقَرَأَ " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ (سورة الأنعام : 153) "[٣] .

وعليه فإن الوسطية التي أرادها الله تعالى وأرادها النبي ﷺ هي تلك المرسومة التي رسمها الله تعالى لهذه الأمة ، فرُسمت الوسطية ولا يجوز للأمة أن تبحث عنها في غير ما أراده الله تعالى ، وهذا مقتضى إحاطة الله وعلمه فأراد الله لهذه الأمة أن تكون شاهدة للوسطية لمعرفتها بما سبق من الأمم بخلاف الأمم السابقة التي جاءت في منتصف الأنبياء فإنه لا يقال أنها وسطية لأنه ربما تأتي أمم بعد ذلك لا تدري أين موقعها بينهم .

ولكن لما اكتملت خطوط الشرائع وخطوط الأنبياء فجاءت شريعة الإسلام وسطية .

ولا يمكن للإنسان أن يدرك معنى الوسطية إلا وقد أدرك الشرائع السابقة ، ولا يدرك أحد الشرائع كما يدركها المشرع سبحانه وكذلك نبيه ﷺ فيما يخبره الله تعالى .

أصل ومرجعية الوسطية

يرجع مصطلح الوسطية إلى الله تعالى فهو الذي شرع للأمة الشرائع والأحكام وأمرهم بأوامر ضمَّنها في كتابه وسنة نبيه ﷺ .

وحقيقة الوسطية هي تلك الأوامر التي جاءت في الكتاب والسنة لأن الله جعل الأمة خيارًا وشاهدة على الأمم السابقة ، لهذا جاء في تفسير الوسطية كما في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال عدولًا كما جاء من

[٣]) أخرجه البزار في "مسنده" (5/ 99 رقم 1677) من طريق جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، فذكره.

حديث أبي سعيد وأبي هريرة وجاء عن جماعة من الصحابة كابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وغيرهم من أئمة التابعين.

فمرد الوسطية إلى الكتاب والسنة لا إلى ذات الإنسان .

وبعض الناس يظن أن الوسطية هي وسطية هندسية بأن يتوسط المرء بين اثنين ، والخطوط المتباينة التي خطها النبي ﷺ لا يمكن أن يعرف الإنسان الوسط منها إلا وقد أحاط بها جميعًا .

والله تعالى يعرف ما مضى من عقائد وما مضى من انحرافات وإينما وصلت إليه غرائز البشر من الضلال في جانب الإفراط والتفريط فجعل الأمة هي الوسط من جهة التشريع .

وجهل الناس بالوسطية هو جهل بالأطراف فأى مقدارٍ تجهله في أى ناحية من النواحي يؤثر على الوسطية ; ولهذا الله تعالى جعل الأمة هي المتأخرة فاكتملت لديها الخطوط .

وبعض الناس يضل من جهة معرفة الوسطية التي أرادها الله تعالى بأن ينظر مثلًا إلى خطين في بلد من البلدان أو فكرين ثم يتوسط بينهما وهذا لا شك من مشارب الضلال ، فإذا أراد الإنسان أن ينظر إلى هذا المعنى ويقعّده فيجد الوسطية في مشرق الأرض تختلف عن الوسطية في مغرب الأرض ويجد البيئة الواحدة تختلف فيها الوسطية بحسب مشارب الناس .

وعليه فإن الوسطية ليست وسطية هندسية أو حسابية أومعادلات بحيث أن الإنسان يعرف أن الوسط هو الرقم كذا ، وإنما جعلت الأمة وسطًا وانتهى.

وليس للإنسان أن يبحث في التشريع ;لأنه مهما بلغ بالبحث في التشريع لن يصل إلى النتيجة التي أرادها الله تعالى وذلك لعلم الله وكماله في إحاطته سبحانه .

ولو أراد الإنسان على سبيل المثال أن يدعي دعوة أن ما تحت قدميه هو وسط الأرض ويكل ذلك إلى علمه وذاته ، وربما تكون هذه الدعوة دعوى عريضة لكل بلد يدّعون أنهم وسط الأرض ، ولكن لا يمكن أن يدرك الإنسان ذلك إلا بإحاطته بمعرفة كرة الأرض ومسافاتها فيدرك حينئذٍ أنه المتوسط .

والشرائع التي أوجدها الله تعالى والانحرافات التي طرأت عليها لا يمكن للإنسان أن يحيط بها ، والله تعالى يعلم تقلبات وانحرافات البشرية في دائرة الوثنية والشرك والكفر ، وكذلك في جانب الانسلاخ من دين الله تعالى ; ولهذا بينت الشريعة الوسطية وعلى الناس أن يسلكوها من غير بحثٍ على غيرها .

ولهذا النبي ﷺ لما خط خطا وخطوطا لم يقل ابحثوا وإنما قال " هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ " فبيّن النبي ﷺ أن هذا هو الصراط المستقيم .

وإذا أردنا أن ندل أحد فندلّه على الصواب لأن فروع الباطل كثيرة ومن الاختصار أن ندلل على الطريق الصحيح ولهذا إذا قلنا ابحث في الأرض ثم استدل على طريق الحق فهذا ضرب من ضروب مناقضة الشرائع وكذلك مناقضة العقل .

ولهذا البشر من جهة التعليم يعلّمون الناس الخير أكثر مما يعلمونهم الشر كذلك في التجارب النظرية يقع الإنسان في ألف خطأ ثم يصل للصواب فيعلم الناس الصواب ولا يعلمهم الألف خطأ.

والله تعالى قد بين أن هذه الأمة هي الوسطية وما مرت به البشرية عن يمين وشمال هو ضرب من ضروب الضلال ، ولهذا النبي ﷺ لما رسم هذه الخطوط يتلو قوله تعالى ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام :153] .

والإنسان ربما يُغلّب بقصوره وجهله ونزوات النفس والهوى جانب مما يهوى بوضعه تحت دائرة الوسطية أو ينظر إلى الجو العام ثم يتوسط كتوسط الإنسان بين جبلين أو بين خطين ثم يدعي الوسطية .

وجهل الإنسان في معرفة إدراكه في بصره وبصيرته كحال الضوء الذي يشير إلى ضرب من ضروب الخطوط العريضة الممتدة فهذا الضوء يأتي إلى الدائرة فيظهر خمسة أو عشرة لكن الخطوط عريضة جدًا يعلمها الله تعالى ، ثم يأتي إلى ما وصله من هذا الضوء فيختار منها ، ثم إذا اتجه الضوء يتجه حيث اتجه .

والله تعالى يعلم ما لا نعلم ، يعلم العلم الكامل ولا ينقصه شيء ، والشاهد لا يزيد في علم الله تعالى لشهوده وكذلك الغائب لا ينقص في علم الله لغيابه ، لله العلم المطلق والإحاطة .

ولهذا أشار الله تعالى إلى أنه أنزل على النبي ﷺ في كتابه وفي السنة المنهج القويم والتشريع وهو الوسط بين سائر الشرائع شهدناها أم لم نشهدها ، قد يصل إلينا شيء من الجهل فنلتفت يمين نرى خطين ونلتفت يسار نرى خطين فنظن أنا لسنا بالوسط ولكن نقول إن الخلل في الرؤية والبصيرة ولا نقدم معرفتنا وإدراكنا وجهلنا على ما رسمه الله تعالى لهذه الأمة .

خصائص الوسطية وسمات الوسطيين

لا يمكن للإنسان أن يعرف الوسطية يقينًا إذا تعامل مع وسطية القرآن على أنها أرقام ; لأن كثير من المعادلات غائبة فإما يلتفت إلى اليسار فيجد جهل أو اليمين فيجد جهل .

وقد جاء عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " إِنَّكُمْ تَتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا ، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ "[٤] فمن يدرك هذه الأمم ؟ وما هي عقائدهم ؟ وما هي مذاهبهم ومناهجهم ؟ وأين وصلوا من درجة الانحراف ومخالفة أمر الله في الأصول والعقائد؟ لاشك أن الإنسان لا يستطيع أن يدرك مثل هذا الأمر والكمال لله في الإحاطة والعلم الكامل .

أما نظر الإنسان فهو نظر ذاتي ليس للإنسان أن يقوم بوضع خطين ثم يتوسطهما ثم يقول هذه وسطية الأرض فهذا قصور في الماديات ، فكيف فيما يخفى على الإنسان من عقائد !.

ولهذا بيّن الله المنهج الحق في كتابه وسنته وبين السمات التي يشار إليها فمصدر الوسطية هو الكتاب والسنة أنزلهما الله بلسان عربيٍّ مبين .

والسنة منزلة كما أنزل الكتاب من عند الله تعالى وإن كان بلفظ النبي ﷺ فهو حامل للوحي يترجمه وذلك لقوله تعالى﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النجم: 3] ولهذا أمر النبي ﷺ بطاعته كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران: 31] والإتباع يكون من جهة تفسير ما أراده الله تعالى للأمة ، فالبيان الذي يرد من كلام النبي ﷺ ووحيه مرده إلى الله تعالى ولهذا يقول الله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 19] فتفسير القرآن إنما هو من الله وإن كان بلفظ النبي ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [المائدة : 99] ويقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : 67] فالنبي ﷺ لا يخرج عن دائرة البلاغ وإنما هو يترجم الوحي الذي يصل إليه من رب العالمين .

٤) أخرجه الترمذِيُّ (2927) وأخرجه عبد الرزاق (التفسير)(45/1) والدارمِيُّ (السنن)(2760) وابن ماجه (4288،4287).

وقد جاء عن أحمد بن زيد بن هارون قال "إنّما هو صالح، عن صالح، وصالح، عن تابع، وتابع عن صاحب، وصاحب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله عن جبريل، وجبريل عن الله عز وجل "[٥].

وقد جاء عن غير واحد كما جاء عند حسان بن عطيه قال : كان جبريل ينـزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينـزل عليه بالقرآن "[٦].

ولا يمكن للإنسان أن يبين بيان للناس إلا وهو يدركه فمرده إلى أقرب الناس فهمًا لادراكه ، ولهذا زكى الله الصحابة وأمر باتباعهم وسلوك منهجهم كما في قوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة :100] كذلك بين النبي ﷺ أنهم الأمنة كما جاء عنه " النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ "[٧] كما أمر بالتمسك بالخلفاء الراشدين وما فهموه من وحي عنه ، ولهذا يقول النبي ﷺ كما في حديث العرباض "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ "[٨].

ثمة أشياء تزلزل الإنسان ، وهذه الزلزلة أشار النبي ﷺ إليها فالإنسان لا يستمسك إلا لخللين وقع عليه ، الخلل الأول إما خلل في القاعدة التي يتكأ عليها وهو إشارة إلى الأفكار العامة التي تزلزل الإنسان ، والخلل الثاني وهوخلل خارج من ذاته ، إذًا خللان يطرآن على الإنسان يدعوان إلى التمسك .

فتحليلات العقل التي تؤدي إلى العجز للوصول إلى الغاية أو النهاية بمعادلات حسابية لا يستطيع الإنسان أن يوجدها وهذا مدرك حتى في الماديات ، فكيف بالأمور الغيبية التي تبعد عن الإنسان !.

فالنبي ﷺ حينما قال تمسكوا بها : إشارة إلى وجود اضطراب في ذات الإنسان من نفسه من أفكار وأهواء ومطامع ذاتية ينبغي للإنسان أن يتمسك حتى لا توقعه وكذلك الأمر الخارج عن الإنسان ، لو كان الإنسان قوي راسخ في ذهنه في استيعابه فإذا كان ثمة اضطراب في قاعدته فيحتاج إلى الاستمساك .

---

٥) أخرجه الخطيب في كتابه "الكفاية" .

٦) سنن الدارمي ج1ص145 ، السنة للمروزي ج1ص111ح402 ، وفي تفسير القرطبي ج1ص39 : (وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينـزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك).

٧) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم (2531).

٨) أخرجه أبو داود رقم (4607) 4 / 200 ، والترمذي رقم (2676) 5 / 44 وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه رقم (42 – 43) 1 / 15 – 16 وزاد وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد ، وأحمد رقم (17182، 17184) 4 / 126وزاد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعليكم بالطاعة وان عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد ، والدارمي رقم (95) 1 / 57 ، وابن حبان رقم (5) 1 / 179 ، والحاكم في المستدرك رقم (331 – 332) 1 / 175 - 176، ورقم (329) 1 / 174 ، والطبراني في الكبير رقم (617) 18 / 245 ، ورقم (623) 18 / 248 ، ورقم (624) 18 / 249 ، ورقم (642) 18 / 257 ، وفي الأوسط رقم (66) 1 / 28 ، والهيثمي في موارد الظمئان رقم (102) 1 / 56 .

والاضطراب والخلل الذي يرد على الإنسان إما اضطراب داخلي او أمر خارج عنه وهي التيارات والأهواء ولهذا رسمها النبي ﷺ خطوطا .

وقد جعل الله تعالى من مقتضى يسر الشريعة أن رسم وسطيتها وبين قدر بسيط من معاني الباطل لأن إدراك الباطل لا يستوعبه العمر .

وإنما بين الله تعالى للإنسان المنهج حتى يسلكه وأوصله إلى النتائج وما جعله يخوض تجارب واختبارات ثم ينقضي عمره ثم يقول لم أصل إلى نتيجة ثم يعاقبه الله ، هذا مقتضى عدل الله أن يبين الحق ويبين شيء من الشر وأصوله من الصور والأهواء التي توجد وتتقلب في كل زمن ثم يقيس عليها الإنسان ، اما أحوال الأمم والتي تتقلب في دائرة الضلال التي ربما تتكرر في زمن البشرية ويظن الإنسان أنها جديدة فلو دخل الإنسان في حقل تجارب الباطل لانقضى عمره كله ثم يفاجيء بالتكليف و الله تعالى عدلٌ قد بين الحق ويسره.

ولهذا يقول الله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : 185] اليسر : أحكام الشريعة ، العسر : دائرة شديدة جدًا من أمور اليمين والشمال .

منزلة الوسطية من الشريعة

النبي ﷺ بيّن الوسطية ورسمها وبيّن الباطل ورسمه ، والباطل له جهات متعددة جهات عن يمين وجهات عن شمال ، جهات من جهة الإفراط وجهات من جهة التفريط ، وجهات من جهة الغلو وجهات من جهة فرط التسامح ، والخطوط لا تنتهي لتعدد الانحراف الذي يطرأ على الإنسان .

حتى في المعادلات الهندسية والمعادلات المادية لا يمكن أن يرسم الإنسان خط مستقيم إلا شكلاً واحدًا بخلاف الانحراف يستطيع أن يرسم ما لا نهاية من أشكال الإلتواء مما لا يمكن أن يخطر في بال الإنسان ، أما الاستقامة فهي واحدة ولهذا الشريعة جاءت خطًا مستقيما واحدًا .

والحق مرده إلى كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ; ولهذا يقول الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.

فالوسطية هي أن تأخذ بضوء الحق والنور الذي جاء به كلام الله وكلام رسول الله أما المعاني الخاطئة والآراء والأهواء التي تطرأ على الإنسان وربما الشبهات التي تقع في الإنسان في إدراك معنى الوسطية فهذا لا حد له ولا نهاية .

والوسطية هي طريق واحد والحق هو طريق واحد ، وأما الباطل فطرق متعددة جاء الحق في وسطها وإنما عبر عنهما بمصطلحين مختلفين لا يعني في ذلك اتحاد من غير قسيم .

ولما كانت أقسام الباطل متعددة جاء الحق بينهما ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة :257] يعني ثمة ظلمات فجعلها متعددة وأما النور فهو واحد .

الوسطيون

النبي ﷺ بين منزلة الناجون من الفرق بحيث يميز الإنسان وسطيته عن الفرق والطوائف والمذاهب الضالة وهذا يظهر في قول النبي كما جاء في السنن أنه قال ﷺ " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، فواحدةٌ في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، إحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيده لَتَفْتَرِقَنَّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار "[9] وَفِي رِوَايَةٍ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِّ مَن الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: (مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي) "[10] .

أرشد النبي ﷺ إلى هذه الفرق التي تقود إلى النور الهداية وهي رأس القافلة التي ينبغي للإنسان أن يسلكه .

ثمة كدر يطرأ على هذا المعنى وهو معلوم حتى من جهة الماديات والطبيعة ، فالنبي ﷺ شبه الوحي بالغيث كما شبهه الله تعالى بتطهير القلوب ، وهذا الغيث أنزله الله وجعل له حملة ، والحملة هم الصحابة والتابعين .

والشريعة وحملتها تشبه بالماء والأواني ، الماء هو الشرائع والأواني هم الحملة ، فأُفرغ في الصحابة والصحابة أفرغوا في التابعين وكلما زاد إفراغًا زاد كدرا ، لذلك إذا أراد الإنسان الماء النقي فإنه يأخذه عن منبعه الأول وأصوله ، لأنه كلما نقل الماء من إناء لإناء فلابد أن يطرأ عليه شيء من النقص والشوائب فيأخذ من كل عقل

[9]) رواه ابن ماجه من حديث عوف بن مالك (479) واللفظ له، وابن أبي عاصم في (السنة) (63)، واللالكائي في (شرح أصول الاعتقاد) (1/ 101)، كلهم من طريق عباد بن يوسف حدثنا صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك به.

[10]) رواه الترمذي في سننه، ورواه ابن ماجه، ورواه الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك، وهو حديث مشهور وله طرق متعددة.

شائبة كما يأخذ الماء من كل إناء شوائبه ; ولذلك من رحمة الله تعالى أن جعل الأواني الأولى هي الصدر الأول من الصحابة ومن قبلهم النبى ﷺ ، فتؤخذ الشريعة من الكتاب والسنة يُرجع إليهما ولا يرجع إلى الأقوال الشاذة التي تخرج عن مراد الله تعالى وحكمه .

أدعياء الوسطية

من الخلل الذي يطرأ على مفهوم الوسطية وتطبيقها هو التأثر بجملة من المؤثرات ، كحال الإنسان الذي يخير بين جوين شديد الحرارة وشديد البرودة ثم يتوسط ، والحكم في ذلك ليس ذوق الإنسان وليس حسه لأنه يتقلب من زمن إلى زمن .

فليس للإنسان أن يختار توسطًا بالتأثر في الواقع ; لهذا النبي ﷺ في زمن كفار قريش كان يُهدد بالقتل والطرد وغيره من الإيذاء بأنواع الأذى المتنوع عليه .

وهناك من توسط بين النبي ﷺ وبين كفار قريش كأبي طالب فأخذ جانب التسامح واللين ونصرة النبى ﷺوبقى على الكفرالذي كان عليه كفار قريش ، فإذا اعتبر أبو طالب من الوسطيين فهذه وسطية خاطئة باعتبارٍ خاطئ .

والطوائف الموجودة في ذات الإنسان تتغير من بيئة إلى بيئة ، فاليهود والنصارى ثمة مفهوم للوسطية في بيئتهم ، والوسطية هي فوق ذلك كله وهي المحيطة بجميع هذه العقائد والأفكار من أمور العقائد والأحكام والشرائع وهي التي يعلمها الله تعالى ورسمها .

والإنسان حتى في الأرض إذا أراد أن يصنف جوا في مشرق الأرض ومغربها يختلف وسطية الجو لديه بحسب بيئته .

ولهذا فإن الشرائع ما جاءت تتكيف كما تتكيف الماديات وإنما أراد الله تشريعا لا يحكمه تقلب الإنسان .

والإنسان إذا جاء إلى بيئته فحدد الفئة الغالية والفئة المتسامحة ثم جاء بمفهوم يتوسط فيما بينهما فقد جاء بمفهوم زمانه وليس مفهوم الحق كما أراده الله تعالى .

ولهذا النبي لما عرض عليه أمر أبا طالب بين أن هذا من الضلال وبين أنه لم يكن من أهل الإيمان قال ﷺ " أَيْ عَمِّ قُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ " [11] فينبغي للإنسان أن يفرق بين المؤثرات التي تكون في الواقع والمؤثرات التي تكون في الأفكار والتيارات ، فربما المتغالي في زمننا لن يكن متغالي في زمن آخر ، وربما المتسامح في زمننا لن يكن متسامح في زمن آخر .

فالحق واحد ولكن الانحرافات هي تلك الخطوط التي تكون عن يمينه وشماله .

والإعلام قد خلق جو للإنسان وصيره فيه من حيث لا يشعر ، فلو وضعت الإنسان في حجرة باردة وآخر في حجرة حارة ثم أخرجتهما في جو متوسط بينهما لكان الأول يصف الجو بالحرارة والآخر يصف الجو بالبرودة .

فصنع الإعلام جو ذهني وفكري نفر الناس من الوسطية الحق إلى وسطية صنعت لهم .

وكثير من الناس ينظر في بيئة شديدة الانسلاخ منغمسة في الفواحش ثم يظن أن التوسط أن تبدي المرأة شيء من عورتها .

والذي صُنع للأمة في هذا الزمن هو جو من جملة من المعاني المكذوبة حتى سيقت الأمة من حيث لا تشعر لتنفر منه إلى جو مضاد .

ومن السياسة الفكرية إذا أردت أن تقود الإنسان إلى طريق وسط فلا تدله عليه وإنما اصنع له جبهتين جبهة متشددة وجبهة منسلخة فيأتي الإنسان بالتوسط بينهما لا إراديًا .

وثمة جوعام خلقه الإعلام الغربي وكذلك الإعلام الشرقي من عملائه إلى وصف صفات معينة من جهة العقائد والسلوكيات على أنها شيء من التشدد وشيء من الغلو والإرهاب وغير ذلك ، كذلك جانب آخر لمفهوم الانسلاخ والانحلال ذهبوا فيه إلى معاني بعيدة جدًا حتى يتوسط الناس بينهما ، فجاءت وسطية مصنوعة صنعت أطرافها وما صنعت لذاتها للتنفير والحياد عن الوسطية الحق بدعوى التشدد والغلو .

والوسطية الحقيقية هي وسطية الكتاب والسنة ليست وسطية تصنع أو تؤثر على العقول .

وهذه العقائد الطارئة والانحراف لا قيمة لها وإنما القيمة في الأصل العام وإنما بالنظر إلى وسطية الإسلام في جانب العقائد تتضح سائر العقائد بمجموعها من الانحراف .

[11]) اخرجه البخاري في صحيحه (4772) ومسلم (24) عن سعيد بن المسيب عن أبيه.

فعقيدة الإسلام وسطية في جانب العقائد فلا تنفي وجود الله فتلحد ولا تعدد الآلهة ، كذلك من جهة التعلق بالخالق لا رهبانية في الإسلام بالانقطاع لله مع تضييع جانب الدنيا ولهذا يروى عن النبي ﷺ قوله " لا رهبانية في الإسلام "[١٢] أي لا تبتل ولا انقطاع وإنما هو توسط في ذلك .

وما من أحد يحسن تأمل الأفكار وعدها يمين وشمال وما يتعلق بالعقائد والفروع إلا ويكتشف أن شريعة الإسلام هي الوسطية ، ولكن الخلل في عجز الإنسان عن الإدراك فيقوم بتناول أقرب الأشياء توافقًا مع بيئته ثم يكتشف بعد ذلك أنه على ضلال وانحراف .

الخلط بين الوسطية والتيسير

تحت مبدأ (يسروا ولا تعسروا) جاء الخلط في جانب الوسطية والتيسير بحيث يظن كثير من الناس أن تفسير الألفاظ هو اليسر النفسي الذي يطرأ على الإنسان .

والشريعة ما جعلت أحكامها مرجع لنفس الإنسان واختياره وذوقه وحسه حتى يطلقون نصوصًا وردت في الشريعة ليس المراد بها هو اختيار الإنسان لليسر المعنوي الذاتي وإنما المراد هو الأسلوب الحسن واللين في الطرح وهذا مرده إلى الأحوال والتطبيق والمآلات .

يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين عن عائشة قالت " مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا "[١٣] فالنبي ﷺ ما خُيّر بين أمرين ما لم يكن إثمًا، يعنى ما لم يكن ثمة نص ، فإذا كان ثمة نص فليس للإنسان أن يتجاوز فيه .

ولهذا يقول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب :36] فالاختيار في ذلك ليس لرغبات الإنسان .

والخلل الذي يطرأ على كثير من الدعاة أو المنتسبين إلى العلم في جانب التيسير هو القصور بالإحاطة بأدلة الشريعة من الكتاب والسنة فيقومون بالاختيار بشيء بناء على الجو العام أو ربما بما يناسب الجمهور وهذا من

[١٢]) رواه أحمد في مسنده (6 / 226)
[١٣]) رواه البخاري (6288) ومسلم (4294).

الأمور الخاطئة ولهذا النبي ﷺ وصف كثير ممن يتبنى مثل هذه الأمور بأنهم دعاة على أبواب جهنم ، ولهذا جاء في حديث ابن العاص قال ﷺ " إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا "[١٤] فهؤلاء الجهال أفتوا الناس بما يريدون دون الرجوع إلى اختيار الشريعة ومراد الله تعالى .

وبعض الناس يريد أن يرفع الكلفة عن نفسه بالإطلاق ، والله تعالى يقول ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] ويقول ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : 7] يعني أن الله جعل كلفة في الشريعة وقدرها ولكن نستطيع تحملها ، فليس للإنسان أن يقول من التيسير أن لا أصلي الصلاة الفلانية أو أقسم الصلاة إلى نصفين أو أُفرّط في جانب من جوانب العقيدة.

فهذا التيسير ليس لذات الإنسان ; ولهذا النبي ﷺ حينما بعث معاذًا وأبا موسى الأشعري قال لهما " يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا "[١٥] هذا من جهة الأسلوب والطرح ، أما من جهة الحكم الشرعي فقال النبي ﷺ لمعاذ " إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ... "[١٦] فالحكم الشرعي هو حكم الله تعالى ولا يدخله جانب الاختيار النفسي من جهة التيسير الذاتي النفسي ولا يدخله استحسان العقول ورغبات الناس .

لهذا ينبغي على الإنسان وعلى كل من يفتي ألا يجعلوا اختيار الأحكام الشرعية لصنع جو عام أو طروح أو ضغوط إعلامية فلا يمكن للعالم أن ينجو بأمانته التي حمّلها الله إياها إلا بالبلاغ دون نقصٍ أو زيادة وفق ما أراد الله تعالى لا وفق ما تريد الأنفس والأهواء .

[١٤]) رواه البخاري: العلم (100) ، ومسلم: العلم (2673) ، والترمذي: العلم (2652) ، وابن ماجه: المقدمة (52) ، وأحمد (2/162، 2/190، 2/203) ، والدارمي: المقدمة (239) .

[١٥]) رواه البخاري مع الفتح في كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع 8/62، برقم 4344، و2345، ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب الأمر بالتيسير وترك التنفير 3/1359، واللفظ له، برقم 1733.

[١٦]) رواه البخاري (1395)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (19)، والنسائي (2/5)، وأبو داود برقم (1584)، والترمذي (625)، وابن ماجه (1783).

ضوابط الوسطية

بيئة الإنسان ليست حكمًا في اختيار التوسط وإنما الحَكَم هو حُكْمُ الله تعالى لأن الله جعل الأمة وسطا بين كل الأفكار وكل العقائد ولذلك قال الله تعالى ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ شهداء على كل ما مضى ، فالأمة جعلت على الوسطية وقضي الأمر أراد الله بها يسرا ولم يرد بها عسرا ، وليس للإنسان اختيار .

والوسطية فيها جانب اليسر من جهة الطرح وأصحاب الأعذار لا ضرر ولا ضرار والأمر إذا ضاق اتسع ومن جهة الضروريات ولكن لا ينافي حسم الإسلام حتى لا يتبدل.

فالتيسير في قضايا الأفراد لا ينافي وسطية الإسلام واعتداله وعدم انحرافه، كالتيسير في أمور الصلوات ، في قصرها في السفر ، سقوط الصلاة عن الحائض والنفساء ، سقوط بعض الأحكام الشرعية مما يتعلق ببعض أهل الأعذار للمرضى وغير ذلك كما جاء في الحديث " صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ "[١٧] .

هذه الأمور لا تسقط الأمر الشرعي فلا نقول للإنسان لا تصلي لوجود المرض فينبغي أن نفرق بين قضايا العيان والتيسير فيها والأمور التي تحل بالأمة في ساعة معينة عن إبطال التشريع بالجواز .

ومن أمور الخلط في جانب الوسطية اننا نجد فتاوى في الخليج ،وفتاوى في مصر وفتاوى في العراق متباينة وكل يدّعي الوسطية ، فإذا كانت وسطية حسابية فأين موضع الوسطية فيها ؟.

وإنما كان الخلل في العقول في إدراك الوسطية ، ولو سلكوا منهج وسطية الكتاب والسنة لاتحدوا على منهج واحد على ما أراده الله تعالى ولم تحكمهم البيئة ولا ظرف ولم يتأثروا بمؤثراتٍ عن يمين أو شمال .

ولما بعث الله موسى عليه السلام وأنزل عليه كتابه قالوا ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون :83] يعني من أخبار الأوائل الأقدمين ويقول أقوام آخرين لنبيهم ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون :24] وآخرين ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ [ص : 7] يعني إما انهم يريدون تتبع الآباء وفي نفس الوقت يقولون أساطيرالأولين ، فماذا يريدون إذًا !.

فمسالة الزمن لها تأثير فيعتبر الإنسان أن ما قبله تخلف وماضي وما يأتي بعد ذلك فهو لاحق ولا وسط في ذلك .

[١٧]) أخرجه البخاري في صحيحه (1117) ، وأبو داود في سننه (952)

والقدم والحدوث عجلة تدور في الإنسان فإن الجديد سيصبح قديم لمن جاء بعد ذلك وسيكون من أساطير الأولين ، بينما الحق ثابت .

وقول النبي ﷺ " لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ "[١٨] هي وسطية بين اليهود والنصارىٰ فاليهود قتلوا أنبيائهم وهمشوهم وما جعلوا لهم قيمة ، والنصارىٰ غلوا في عيسىٰ وجعلوه إلها وربا ، فأراد النبي ﷺ أن يرد علىٰ النصارىٰ في غلوهم في عيسىٰ أنه عبد ، وأراد أن يرد علىٰ اليهود في تحقيرهم للأنبياء أنه" رسول الله " ﷺ .

والبحث في الوسطية بحث مضني ومتعب ولا يأتي بنتيجة كحال قياس الإنسان لمسافات الأرض عن يمين وشمال ثم يدعي الوسطية ، وإنما الوسطية رسمها الله تعالىٰ والبحث فيها مما ينقضي به العمر دون وصول إلىٰ نتيجة .

ولاشك أن جوانب العقيدة من وحدانية الله وتفرده في الربوبية والآلوهية والأسماء والصفات وجوانب الإيمان ونواقض الإيمان المتعددة ، من المسائل المهمة التي لها أثر عظيم علىٰ وسطية الإنسان واستقامته ، والخلل فيها له أثر علىٰ دين الإنسان واستقامته ، فالاهتمام بذلك لاشك هو أعظم الاهتمام وسلكه هو أعظم الوسطية .

[١٨]) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء (3445) ، ومسند أحمد (23/1، 24/1، 47/1).